الرفـــق

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمـــة

الرفق صفةٌ ساميةٌ جليلة، يكفي أنَّ الله -تعالى- أحبَّها واتَّصفَ بها، ففي الحديث الصحيح: «إنَّ اللَّهَ رَفيقٌ يُحبُّ الرِّفْقَ في الأَمْرِ كُلِّه».

الرفقُ حكمةٌ ورحمة، تعقُّلٌ وتفضُّلٌ، أناةٌ ورشدٌ، ودفعٌ بالّتي هي أحسن، قال جلَّ وعلا: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾[1] ، وفي الحديث: «يا عائشة، ارفقي؛ فإنّ الله إذا أرادَ بأهل بيتٍ خيرًا دَلَّهُم على باب الرّفق»[2].

الرفقُ -جعلني الله وإيّاكم من أهله- ضبطٌ للنّفس، وتحكّمٌ في التّصرّفات، واختيارٌ للأفضل والأسهل، ففي الحديث: «ما خُيِّرَ صلّى الله عليه وسلّم بين أمرين إلّا اختارَ أيسرَهما ما لم يكن إثمًا»[3].

والرفقُ من الترفُّق، تلطُّفٌ في القول والفعل، تسهيلٌ وتيسير، مُداراةٌ وتُؤدَة، صبرٌ وسعةُ صدر، وفي محكم التنزيل: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾[4] ، وفي صحيح مُسلم: «مَنْ يُحْرَم الرِّفْقَ يُحْرم الخيْرَ كُلَّهُ»[5].

---

(١) [فصلت: ٣٤]

(٢) الصفحة أو الرقم: ٢٦٦٩ | خلاصة حكم المحدّث: صحيح | التخريج: أخرجه أحمد (٢٤٧٣٤) باختلاف يسير، وابن الجعد في (المسند (٣٤٥٣))، وابن عديّ في (الكامل في الضعفاء (٤/٢٩٥) مختصرًا)

(٣) الراوي: عائشة أمّ المؤمنين | المحدّث: البخاريّ | المصدر: صحيح البخاريّ | الصفحة أو الرقم: ٦٧٨٦ | خلاصة حكم المحدّث: صحيح | التخريج: أخرجه البخاريّ (٦٧٨٦)، ومسلم (٢٣٢٧).

(٤) [الأعراف: ١٩٩]

(٥) الراوي: جرير بن عبد الله | المحدّث: مسلم | المصدر: صحيح مسلم | الصفحة أو الرقم: ٢٥٩٢ | خلاصة حكم المحدّث: صحيح.

عناصر الموضوع

1. فضائل الرفق
2. يحبّ الله –عزّ وجلّ– الرفق في كلّ الأمور.
3. الرفق سبب لكسب محبّة الله، وسبب لعطاء الله عزّ وجلّ.
4. لا يكون الرفق في شيء إلّا زانه.
5. جُعل المحروم من الرفق محرومًا من الخير.
6. إذا أحبّ الله أهل بيت، أدخل عليهم الرفق.
7. إنّ خصلة الرفق في المؤمن دلالة على أنّه من أهل الجنة.
8. عليك بالرِّفقِ، وإيّاك والعُنفَ.
9. كن رفيقًا بالآخرين.

الرِّفقُ خُلُقٌ مِنَ الأخلاقِ الفاضِلةِ الَّتي يُحِبُّها اللهُ تَعالى، وقد جاءت في عظيم فضله وأجره أدلّة كثيرة تبيّن ذلك، وتأمر به، وتحثّ على التحلّي به.

يتجلّى فضل الرفق من خلال ما يأتي:

يحبّ الله –عزّ وجلّ– الرفق في كلّ الأمور

ففي صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ: «يا عائشة، إنّ الله يحبّ الرفق في الأمر كلّه».

وفي سنن ابن ماجه: عن عائشة عن النبيّ ﷺ قال: «إنّ الله رفيق يحبّ الرفق في الأمر كلّه»[١].

الرفق سبب لكسب محبة الله، وسبب لعطاء الله عزّ وجلّ

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله رفيق يحبّ الرفق، ويعطي على الرفق، ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه»[٢].

الرِّفقُ سببٌ عظيمٌ في كسبِ محبَّة الله –جلّ وعلا–، وسببٌ لـمُضاعفَة الحسنات، ورفع الدرجات، فالله يحبّه ويجزي عليه. تستطيع أن تصل إلى المطلوب بالرفق، وقد لا تستطيع التوصّل إليه بالعنف والشدّة؛ فبالرفق يمكن أن تُحَلّ المشكلات، وأن تصل إلى ما تريد، فلا تختَر طريق الشدّة والعنف إذا كان أمامك الطريقان؛ فلا يصحّ بحال من الأحوال أن يتخيّر

---

(١) الراوي: جرير بن عبد الله | المحدّث: مسلم | المصدر: صحيح مسلم | الصفحة أو الرقم: ٢٥٩٢ | خلاصة حكم المحدّث: صحيح.

(٢) الراوي: عائشة أمّ المؤمنين | المحدّث: مسلم | المصدر: صحيح مسلم | الصفحة أو الرقم: ٢٥٩٣ | خلاصة حكم المحدّث: صحيح | التخريج: أخرجه البخاريّ (٦٩٢٧)، ومسلم (٢٥٩٣).

الإنسان الشدّة، فذلك قد يقطع عليه الطريق، فلا يصل إلى مطلبه، إضافة إلى ما تورثه هذه الشدّة من نفور لدى النفوس، ولربّما قوبِلَت تلك الشدّة بمثلها، فحدث للإنسان ما يكره، أمّا إذا تعامل باللطف والرفق، استمال قلوب الناس، وحصل على مقصده.

يوفَّق المترفِّق، وسيُجازى أحسنَ الجزاء في الدنيا بتيسير أعماله، وفي الآخرة بالثواب الجزيل؛ «إذ بالرفق تنال المطالب الأخرويّة والدنيويّة، وبفوته يفوتان».

«ويُعطي على الرِّفقِ ما لا يُعطي على العنفِ»؛ أي يعطي المتحلّي بالرفق ما لا يعطيه للمتحلّي بالعنف والشدّة؛ فينال المترفِّق في الدنيا الثناء الجميل ونيل المطالب وتسهيل المقاصد، وفي العقبى الثواب الجزيل.

ووصف الله سبحانه وتعالى نفسه بالرفق إرشادًا وحثًّا لنا على تحرّي الرفق في كلّ أمر، وقد جاء في الحديث: «إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يحبُّ الرِّفقَ ويرضاه، ويُعينُ عليه ما لا يُعينُ على العنفِ»[1].

وكلّ ما في الرفق من الخير، في العنف من الشرّ مثله.

(١) الراوي: عائشة أمّ المؤمنين | المحدّث: مسلم | المصدر: صحيح مسلم | الصفحة أو الرقم: ٢٥٩٣ | خلاصة حكم المحدّث: صحيح | التخريج: أخرجه البخاريّ (٦٩٢٧)، ومسلم (٢٥٩٣).

لا يكون الرفق في شيء إلّا زانه

عن عائشة –رضي الله عنها–: «إنّ الرفق لا يكون في شيء إلّا زانه، ولا يُنزع من شيء إلّا شانه» (١)

عبارةُ «لا يكون في شيء» صيغة عامّة، بل هي أقوى صيغة من صيغ العموم.

لا يكون في شيء إلّا زانه، أي ما صاحب الرِّفقُ تصرُّفًا ولا مسلَكًا إلا زيَّنه، وما نُزِع من قولٍ أو فعلٍ إلّا شانَه وكدَّرَه، يقول ﷺ: «ولا يُنزَع من شيءٍ إلّا شانَه»، فالرفق خير في أمر الدين وأمر الدنيا، حتّى في معاملة المرء نفسه، ويتأكّد ذلك في معاشرة من لا بدّ للإنسان من معاشرته، مثل الزوجة والخادم والولد، فالرفق محبوب، ومطلوب، ومرغوب.

---

(١) الألبانيّ: ٥٦٥٤.

هذا كلام المعصوم ﷺ، وليست فلسفات تربويّة ينطق بها البشر من عندهم.

ما كان الرفق في شيء إلّا جمّله وحبّبه إلى النفوس والأبصار، وما نُزِع من شيء إلّا شانه ونفرت منه القلوب والأرواح، حتّى في التعامل مع الجمادات والبهائم، فإذا أراد الإنسان أن يصلح ثوبه بالعنف، فقد يهتكه، أليس كذلك؟ وإن حاول بالعنف والشدّة أن يصلح شيئًا قد اختلّ يحتاج إلى لطف في التعامل معه، مثل جهاز أو نحو ذلك، قد يفسده على نفسه بالشدّة والعنف والرعونة، لا سيّما إذا أخذته دواعي الغضب، وكأنّ هذا الجماد يفهم.

وكما نشاهد، أو كما نسمع، يأخذ بعض الناس جهازهم الجوّال ويضربونه أمام الناس في المطار على الأرض؛ لأنّهم غضبوا من شخص كان يحادثهم أو نحو ذلك، ما ذنب الجوّال؟ أنتم مَن خسر الآن، وهل حُلَّت المشكلة؟

وهناك مثلٌ آخر: جاء رجل بعامل ليكسر شيئًا في الدور الثاني، ثمّ فوجئ أنّ العامل يدعوه، وإذا به ينظر إلى الدور الأرضيّ، فقد خرق هذا العامل السقف لفظاظته وجفائه وسوء صنيعه، وعدم تحلّيه بالرفق، فبالغ وأفرط وخرق السقف بدلًا من أن يكسر البلاط.

ويقول بعض الناس: «لو عاسرتني يميني لقطعتها»، فهل هذا مدح يمدح به الإنسان؟

يستطيع الإنسان أن يتوصّل إلى المطلوب بالرفق واللطف، بعيدًا عن دواعي الشدة والغضب؛ إذ لا تقبل النفوس هذا الشديد الذي يغضب، سواء كان مديرًا، أو رئيسًا، أو مشرفًا على العمال، أو طبيبًا، أو ممرضة، أو موظّفًا، أو ربةَ منزل؛ فمَن يتعامل مع الآخرين بشدة وعنف يُنفِر قلوبهم منه.

إذا تعامل البائع مع المشترين بعنف وقسوة، أو كان شديدًا، فهل تحبّ أن تشتري منه؟

وإن تعامل مَن يجلس في الاستقبال في العيادة أو المطار أو الفندق، أو في مكتب، أو نحو ذلك، بقسوة وعنف مع الناس، فلن يأتوه مرّة ثانية، وسيخرجون وهم يذمّونه، لكنّه إن عاملهم بالرفق، كسب قلوبهم، فما أحوجنا إلى الرفق في أقوالنا وأفعالنا، في سلوكنا ومعاملتنا، مع أهلنا وأقاربنا، مع أصدقائنا وأحبابنا، مع صغارنا وكبارنا، مع الذكور والإناث، مع الإنسان، ومع سائر الكائنات، وحتّى الأشياء.

«الرفق لا يكون في شيء إلّا زانه، ولا يُنزع من شيء إلّا شانه»، هذه قاعدة ينبغي أن يجعلها الإنسان أمام ناظريه، ويتعامل مع كلّ الأشياء وفقها.

ما أحوجنا إلى الرفق واللين في زمن كثرت فيه مظاهر العنف والقسوة والغلظة والجفاء، في البيوت، والأسواق، والمؤسّسات، والملاعب، والشوارع، وغير ذلك من الأماكن العامّة والخاصّة.

جُعل المحروم من الرفق محرومًا من الخير

من دون الرِّفق في الأقوال أو الأفعال أو التصرُّفات يفوتُ الإنسانَ خيرٌ كثيرٌ، ومغنَمٌ كبيرٌ، فلقد قال –صلّى الله عليه وسلّم–: «من يُحرَم الرِّفقَ يُحرَم الخيرَ كلَّه»[1]

(١) الألبانيّ: ٦٦٠٦.

يدلّ هذا الحديث دلالة ظاهرة على منزلة الرفق، وما ينتج عنه من تحصيل المنافع والمطالب، وما ينتج عن تركه من الخسران.

تدلّ كلمة (كلّ) في «يُحرم الخير كلّه» على العموم، أي أنّه يُحرم الخير كلّه، في كلّ شيء.

الآن لو أردت أن تُصلح أخطاء الآخرين بشيء من العنف، ماذا ستجني لقاء ذلك؟ ستفسد العلاقات، فمُحال أن يأتي الإصلاح بعنف، ومحال أن يكون التغيير إلى الخير بالشدّة والعنف. أمّا الرفق في الأمور كلّها، فمن شأنه أن يُصلح ويعطي أفضل النتائج، بخلاف العنف الذي من شأنه أن يفسد ويعطي أسوأ النتائج، فمَن أُعطي الرفق فقد أعطي خيرًا كثيرًا، ومن حرم من الرفق فقدَ خيرًا كثيرًا.

في حلّ المشكلات، في معالجتها، في التغلّب عليها، نحتاج إلى شيء من الرفق، فمَن يعالجون الأمور بشيء من القسوة والعنف، أو الفظاظة والشدّة، يعقّدون المشكلة، كمَن يحلّ المشكلات بالكلام السيّئ والغضب والصوت العالي.

مِن الناس مَن امتلأ قلبه قسوة وشدة، فتراه عنيفًا في قوله، عنيفًا في فعله، عنيفًا في أخذه وعطائه.

الرفق منحة ربّانيّة يمنحها الله من يشاء من عباده، وصحَّ عنه ﷺ أنّه قال: «إذا أرادَ الله بأهل بيتٍ خيرًا أدخلَ عليهم الرِّفقَ»[1] ، وذلك بأن يرفق بعضهم ببعض، وذكر (الخير) بصيغة النكرة لإفادة التعميم.

(١) (صحيح الجامع، رقم: ٣٠٣)

إذا أحبّ الله أهل بيت، أدخل عليهم الرفق

«إنَّ اللهَ إذا أحبَّ أهلَ بيتٍ أدخلَ عليهِمُ الرِّفقَ»[1].

وفي رواية عن عائشة –رضي الله عنها– أنّها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله –تعالى– بأهل بيت خيرًا أدخَل عليهم الرفقَ» رواه أحمد[2].

أي: إذا أراد بأهل البيت خيرًا، رزقهم الرفق ليستعينوا به مدّة حياتهم، ووفّقهم للين في تصرّفاتهم فيما بينهم ومع الناس، وألهمهم المداراة التي هي ملاك الأمر.

وهذا من علامات محبّة الله لهم؛ فالبيت الذي فيه رفق وسهولة ويسر في التعامل بيتُ سعادة، لا يودّ الإنسان أن يخرج منه، ويتمنّى ويرقب متى يرجع إليه، والبيت الذي فيه عنف وشدّة بيتُ نكد وتعاسة وشقاء ومشكلات وخلافات، وربّما طغت على أهل البيت وسبّبت شتاتهم.

وإذا أراد الله بأهل بيت خيرًا دلَّهم على باب الرفق، وما حُرِمَ أهلُ بيتٍ الرفقَ إلّا حُرِمُوا الخيرَ، وما أحسَن البيوتَ التي يُزيّنها الرفقُ، ويلُفُّها اللينُ، ويُجمّلُها العطفُ والبرُ والحنانُ والرحمة، وتغشاها السكينةُ والطمأنينةُ، وما أتعس البيوت التي يُزلزِلُها الضجيج والجدالُ، وتفسدها المشاغبة، وتهدمها المخاصمة والمفاتنة، فما فارق الرفق أهل بيت إلّا أضحوا مسرحًا للخلافات، ومكانًا للمنازَعات والخصومات، وهدفًا للشكوك والظنون، ومنبعًا للشكاوى والدعاوى، يتقاذفون ويتحاذفون.

---

(١) الراوي: جابر بن عبد الله | المحدّث: الألبانيّ | المصدر: صحيح الجامع | الصفحة أو الرقم: ١٧٠٤ | خلاصة حكم المحدّث: صحيح.

(٢) الراوي: عائشة أمّ المؤمنين | المحدّث: الألبانيّ | المصدر: السلسلة الصحيحة | الصفحة أو الرقم: ٦٢٢/٢ | خلاصة حكم المحدّث: إسناده صحيح | التخريج: أخرجه أحمد (٢٤٤٧١)، والبيهقي في (شعب الإيمان) (٦٥٦٠).

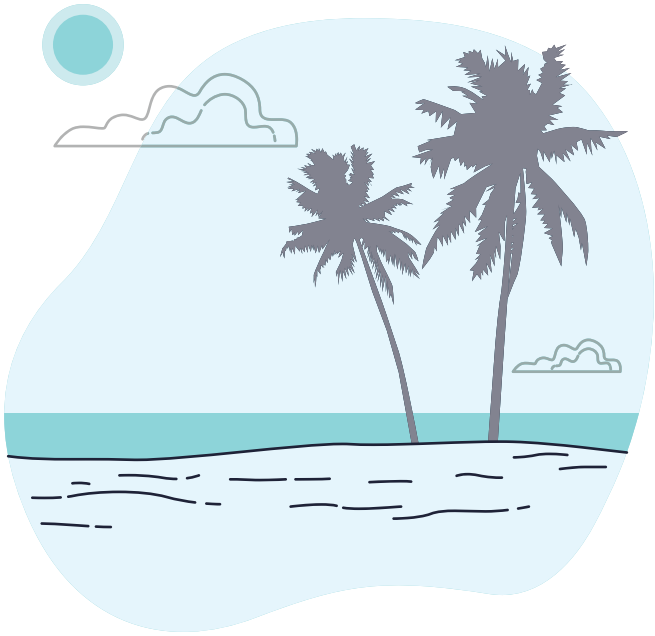

فقد أخرج الترمذيّ من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعًا: «أَلَا أُخْبِرُكم بمَن يَحْرُمُ على النَّارِ، وبمَن تَحْرُمُ عليه النَّارُ؟ على كلِّ قريبٍ هيِّنٍ سهْلٍ»(١)

وينبغي لمن لم يكن رفيقًا ليّنًا حليمًا أن يُعَوِّدَ نفسه على ذلك، فالمؤمنُ رفيقٌ في أقواله وأفعاله وفي جميع أحواله، هيِّنُ التعامُل، رقيقُ المعشَر، قال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾(٢)

إنه الرِّفقُ الذي يتضمَّنُ الرحمةَ بالمؤمنين، ولُطفَ رعايتهم، والبَشاشةَ والسماحةَ في التعامُل. إنّه الرِّفقَ الذي يجلِبُ البُعدَ عن العُنفِ بمختلف أشكالِه وصُوره، والتخلُّصَ من الغِلظَة في المقال، والفَظاظَة في الأفعال، والفُحشَ في جميع الأحوال، قال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾(٣)

(١) أخرجه الترمذيّ (٢٤٨٨)، وابن حبان (٤٦٩).
(٢) [الفرقان: ٦٣].
(٣) [الحجر: ٨٨].

هذه الأفعال الصغيرة لا تكلف الكثير من الوقت أو الطاقة، ولكن يمكن أن تحقّق فارقًا كبيرًا.

الرفقُ لينٌ من غير ضعفٍ، وقوّةٌ من غير عُنفٍ، توادٌّ وتآلفٌ، وقد جاء في الحديث الصحيح: قال النبيّ ﷺ: «أكمل الناس إيمانًا أحسنهم أخلاقًا الموطئونَ أكنافًا، الذين يألفون ويُؤلفون، ولا خيرَ فيمن لا يألفُ ولا يُؤلف»[1]

ومعنى الحديث: يخبر النبيّ ﷺ أنّ أحبّ الناس إليه وأقربهم منه مجلسًا في الآخرة أحسنهم أخلاقًا، ثمّ وصفهم بأنّهم (الموطئون أكنافًا)، وهم مَن جوانبهم وطيئة ليّنة، يتمكّن فيها من يصاحبهم ولا يتأذّى بهم، فهم يفرحون بالحسنة ويتجاوزون عن السيّئة ويعفون ويصفحون.

(الذين يألفون ويؤلفون)، أي يأنسون بالناس ويأنس الناس بهم، ويحبّون صحبتهم، ويتقرّبون منهم.

غالبًا ما نظنّ أن الرفق يتطلّب جهدًا أو وقتًا، لكنّه يحتاج إلى أن نتعوّد عليه فقط.

يمكن أن تكون لطيفًا بفعلٍ بسيط، مثل فتح الباب لشخص ما، أو أن تكون أذنًا صاغية، أو أن تسمح لشخص ما أن يتجاوزك في الدور أو الصف، ويمكنك تقديم مقعدك في الحافلة أو الطائرة لبعض الأشخاص، وتحديدًا لكبار السن، أو للأشخاص ذوي الاحتياجات الخاصّة، وبإمكانك أيضًا أن تعرض على الآخرين الدخول قبلك إلى المكان في حال اجتمعتم عند باب الدخول، أو أن تُدخِل السرور وتجبر خاطر مَن يعاني من فقد أو حزن.

يجب أن تكون مهذَّبًا في الحديث مع الآخرين عن طريق شكرهم عند تقديمهم خدمة لك، أو الطلب منهم بطريقة مهذبة، ويُفضَّل أن تمشي والابتسامة مرسومة على وجهك في جميع الأوقات؛ ليسعد بك من حولك، ويبتسموا لك، والأمثلة في الحياة لا تنقضي على هذا، والله المستعان.

---

(١) (الألبانيّ السلسلة الصحيحة (٢/٢٥٠).

هناك من يظنّ الرفقَ ذِلّة، والرحمة ضعفًا، والأناة كسَلا، والمداراة نفاقًا، واللطفَ غَفلة، ويظنّ الفظاظة رجولة وحزمًا، والقساوة قوّة، والتشدّد تمسّكًا والتزامًا، وهل هذا إلّا انقلاب في المفاهيم، وسوء في الفهم، وغَلط في الإدراك؟

إنّ من أسوأ الأخلاق وأقبَح الصفات الفُحشُ في القول أو الفِعلِ، أو في المُزاحِ ونحو ذلك، يقول ﷺ: «عليك بالرِّفقِ، وإياك والعُنفَ والفُحشَ»[1]، وقال أيضًا –صلّى الله عليه وسلم–: «ليس المؤمنُ باللعَّان ولا الطعَّان ولا الفاحشِ ولا البَذِيء»[2] ؛ فكلُّ تصرُّفٍ قارنَه الفُحشُ قبيحٌ شرعًا وطبعًا وعقلًا.

(١) (رواه البخاريّ ٦٠٣)

(٢) (أخرجه الترمذيّ (١٩٧٧)، وأخرجه أحمد (٣٨٣))

ويقول –صلى الله عليه وسلم–: «ما من شيءٍ أثقلُ في ميزان المؤمن يوم القيامة من حُسن الخُلُق، وإن الله يُبغِضُ الفاحشَ البَذِيءَ»[1]

يَنفِرُ الناس من الفَظِّ القاسي، صاحبَ القلبِ الغليظ، ويتحاشَون الجلوس إليه، فالفظّ الغليظ العنيف تشقّ على الناس صحبته، وتثقل معاشرته، ينفر منه الآخرون ولو كثرت فضائله، بل لعلّهم لا يبالون ما يفوتهم من منافعه؛ فلا تُقبل منه دعوةٌ، ولا يُسمع منه توجيهٌ، ولا يرتاح إليه جليس، وإن كان صالحًا تقيًّا، بل حتّى وإن كان نبيًّا، فقد قال –تعالى– لخاتم الأنبياء وإمام الأولياء: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾[2].

كن رفيقا بالآخرين

الرفقُ يمنٌ، والأناةُ سعادةٌ، فتأنَّ في أمرٍ تُلاق نجاحًا، وجاءَ في صحيح مُسلم: قال النبيّ ﷺ: «يدخُلُ الجنةَ أقوامٌ أفئدتهم مثل أفئدة الطير»[3].

الجَنَّةُ دارُ النَّعيمِ الَّذي لا يَفنَى، وهي رَجاءُ كلِّ مُؤمنٍ يَسعَى إليها؛ فيَعمَلُ الطَّاعاتِ في الدُّنيا ثُمَّ يَرجو تلكَ الجَنَّةَ برَحمةِ اللهِ تعالَى.

وفي هذا الحديثِ، يُخبِرُ النَّبيُّ ﷺ بإحدى الطَّوائفِ والأَصنافِ الَّتي ستَدخُلُ الجَنَّةَ؛ فيَقولُ: «يَدخلُ الجَنَّةَ أَقوامٌ أَفئدتُهم مِثلُ أَفئدةِ الطَّيرِ»، يَعني: مِثلُها في رِقَّتِها وضَعفِها،

---

(١) (أخرجه أبو داود (٤٧٩٩)، وأحمد (٢٧٥١٧)).

(٢) [آل عمران: ١٥٩]

(٣) الراوي: أبو هريرة | المحدّث: الألبانيّ | المصدر: صحيح الجامع | الصفحة أو الرقم: ٨٠٦٨ | خلاصة حكم المحدّث: صحيح | التخريج: أخرجه مسلم (٢٨٤٠).

وَقيلَ: في الخَوفِ والهَيبةِ، فالطَّيرُ أَكثرُ الحَيوانات خَوفًا وفزَعًا، وكأنَّ المرادَ قوْمٌ غَلَب عليهم الخوْفُ مِن هَيبةِ الحقِّ، وخَوفِ جَلالِ اللهِ وسُلطانِه، أوِ المُرادُ: أنَّهم مُتوكّلونَ على اللهِ كالطَّيرِ؛ تَغدو خِماصًا وتَروحُ بِطانًا، وفي ذلكَ مَدحٌ لأَهلِ هَذه الصِّفاتِ، وقد يُحمَلُ الحديثُ على الاحتمالاتِ المَذكورة كلِّها، ولا منافاة بينها.

لا يستغرق الرفق بالآخرين الكثير من الوقت أو الجهد، لكنّ الفوائد التي تعود إليك كبيرة. يمكن لفعل بسيط مثل معاملة الآخرين برفق أن يجعل يومك ويوم شخص آخر سعيدًا. شيءٌ بسيطٌ مثل الثناء أو الابتسامة قد يرفع من معنويّاتك ويجعل يومك أفضل.

إنه الرِّفقُ الذي يَمَسُّ بلُطفه القلوبَ القاسِية فيُحوّلَها من قسوتها وجَفوتها إلى تعاطُفها وتجاذُبها، ومن شدَّتها وغِلظَتها إلى رقَّتها ولُطفها.

حوّل تفكيرك إلى الأفضل في معاملتك الجميع برفق، وعلى قدر ما يمسك الإنسان نفسه، ويكظِمُ غَيظَه، ويملِك لسانه، تعظُم منزلتَه عند الله وعند الناس، فليسَ وظيفةُ المسلم أن يلوكَ أخطاءَ الناس، ويتتبّع عثراتهم، ويعْمى عن رُؤيةِ حسناتهم وكأنّه لا يعرف ولا يرى إلّا السيّئات، وأليس في عيوبه ما يُشغلُه عن عيوب الناس؟

وقد وصف الله –تعالى– صفوة عباده بقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(١).

فالشريعة لا تطلب من الناس أن يتخلّوا عمّا جبلهم الله عليه أصلًا، وذلك أن الإنسان يفرح ويغضب ويرضى، ومن صفات الله –تبارك وتعالى– الغضب، ولكنّ ربّنا العظيم وخالقنا الكريم رفيقٌ يحبُّ الرفقَ، فهو سبحانهُ وتعالى رفيقٌ بخلقه، يقوُل تعالى عن نفسه العليّة: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾(٢) ، ويقول جلَّ وعلا: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ (٣)، وفي الحديث المتّفق عليه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لمّا قضى اللهُ الخلقَ، كتب في كتابِه، فهو عندَهُ فوقَ العرشِ: إِنَّ رحمتي غلبتْ غضَبِي(٤).

---

(١) [المائدة: ٥٤]

(٢) [الشورى: ١٩]

(٣) [الأعراف: ١٥٦]

(٤) الراوي: أبو هريرة | المحدّث: الألبانيّ | المصدر: صحيح الجامع | الصفحة أو الرقم: ٥٢١٤ | خلاصة حكم

وكان النبيّ ﷺ يغضب إذا انتهكت حرمات الله، ولكن يجب ألّا يكون الغضب غالبًا على الإنسان، وألّا يوضع في غير محلّه، وألّا يكون الإنسان انفعاليًّا، أو كما يُقال: سريع الانفعال، يُسرع إليه الغضب، فيتلاعب به الشيطان، فيقوده كما يشاء، فيتلفّظ بما لا يليق، وتصدر منه من الأفعال ما لا يليق.

فَكنْ رفِيقًا رقِيقًا معَ الآخَرِينَ، هَيِّنًا فِي تعَامُلاتِكَ، سَهْلًا لَيِّنًا فِي أَخْذِكَ وَعطَائِكَ، تَجَنَّبِ الْغلْظَةَ وَالْخُشونةَ، وَالْجَفْوَةَ وَالرُّعُونَةَ، وَانْأَ بِنفْسِكَ عَنِ الْفَظَاظَةِ وَالشِّدَّةِ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ فِي الْجَوَانِبِ الْخَيِّرَةِ؛ مثل الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ جَلَّ وَعَلاَ، وَالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَضْلًا عَنِ التَّصَرُّفاتِ الْحَيَاتِيَّةِ، وَالتَّعَامُلاَتِ الاِجْتِمَاعِيَّةِ، لتنال الخير الذي وعد به الله –عزّ وجلّ– مَن يتعامل مع الآخرين برفق.

اللهمّ اجعلنا من عبادك الصالحين؛ أهل الرفق والخير والمعروف والإحسان.

المحدّث: صحيح | التخريج: أخرجه البخاريّ (٣١٩٤) واللفظ له، ومسلم (٢٧٥١).

م	المراجـــــع
١	الحثّ على الرفق – الشيخ حسين بن عبد العزيز آل الشيخ.
٢	خلق الرفق – الشيخ عبد الله بن علي الطريف.
٣	الرفق – الشيخ خالد سبت.
٤	الرفق خلق كريم – الشيخ أحمد عماري.
٥	محاسن الرفق وآثاره الطيّبة – الشيخ بن محمد البدير.
٦	الرفق وأثره – الشيخ صالح بن عبد الله بن حميد.
٧	ما كان الرفقُ في شيءٍ إلّا زانه – عبد الله محمد الطوالة.
٨	الرفق وأثره – الشيخ صالح بن عبد الله بن حميد.
٩	ما كان الرفقُ في شيءٍ إلّا زانه – عبد الله محمد الطوالة.